

الخلق الحسن من دروس الدكتور محمد راتب النابلسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ عدنان:

تقديم وترحيب:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
أيها الإخوة والأخوات ، السلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأرحب بكم في برنامج مكارم الأخلاق ،
وباسمكم أرحب بفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي ، أستاذ الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة في
كليات الشريعة وأصول الدين ، أهلاً ومرحباً بكم دكتور.
الدكتور راتب:

أهلاً بكم أستاذ عدنان ، جزاك الله خيراً.

الأستاذ عدنان:

نسمع عن فلانٍ أو فلانٍ بأنه على خلق حسن ، لكن لا أود أن أتوقف عند هذه الصفة إلا
بعض أن أطرّح ما يلي:

قد يقال عن فلانٍ بمثل هذا الكلام ، لكنه عند أناس آخرين يرونه على غير هذه الصفة ، إذ
يرون فيه نوعاً من أنواع عدم الانفتاح ، وآخرون يقولون: إن الخلق الحسن أن يكون
الإنسان واعياً لما حوله ، ومتعاملاً التعامل الكامل مع من حوله ، إن كانوا على جودة ، أو
كانوا على غير ذلك ، هنا قد تختلف أراء الناس في الإنسان ذي الخلق الحسن ، لكن وكلامنا
واضح دائماً ، نحن نقول من خلال الشرع الإيماني الإسلامي ، ترى من الناحية الاصطلاحية
ممن هو صاحب الخلق الحسن ؟.

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد
الأمين.

الإنسان كائن متحرك بفعل الشهوة:

أستاذ عدنان ، الإنسان في الأصل كائن متحرك ، لماذا هو متحرك ؟ لأن الله أودع فيه الشهوات يتحرك
ليأكل ، يتحرك ليعمل ، يتحرك ليتزوج ، يتحرك ليعلو ، هو كائن متحرك ، وهذه الحركة سببها أن الله
أودع فيه الشهوات

والشهوات لحكمة بالغية أرادها الله سمح للإنسان أن يتحرك فيها ١٨٠ درجة ، ويأتي منهج الله ليقنن حركته بمئة درجة مثلاً ، فما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

من هو الإنسان الأخلاقي بالمنظور الشرعي ؟

من هو صاحب الخلق الحسن في المنظور الشرعي ؟ في منظور القرآن الكريم ؟ و في حقيقة هذا الدين العظيم

صاحب الخلق الحسن هو الذي يوقع حركته وفق منهج الله.

1- الخلق الحسن كما جاء به الشرع:

فالإيمان خلق ، يقول ابن القيم رحمه الله:

"الإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان " ، والدليل : أن صحابياً جلياً شرح الإسلام لملك الحبشة بأنه خلق حسن ، قال:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجَوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ))

أبرز صفات النبي أمانته ، وصدقته ، وعفافه ، هذه أخلاق حسنة.

((فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوجِدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْجِبَارَةِ وَالْأَوْتَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصَلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَالصِّيَامِ))

[أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة أم المؤمنين]

وهذا في المنظور الحديث العبادة التعاملية ، وقد يقول العلماء : " إن العبادة الشعائرية لا تقبل ، ولا تصح إلا إذا صحت العبادة التعاملية.

2- الشرع هو مقياس المتفتح والمنغلق:

أنا دائماً عندي مقياس ، أو عندي مرجعية ، أن أتهم إنسان أنه مغلق أو منفتح ، اجتماعي أو انطوائي ، هذا التقييم الشخصي لا قيمة له إطلاقاً.

يقولون : هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند

العبارة أن تكون ذا خلق حسن بمقياس الله ، بمقياس القرآن ، بمقياس السنة ، فقد لا يروق عملك لواحد من الناس ، لا قيمة لتقييمه ، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به.

ونقول دائماً : إن الشرع هو المرجع ، فأنا صاحب خلق حسن إذا جاءت حركتي في الحياة وفق شرع الله ، أحياناً أعطي ، أحياناً لا أعطي ، أحياناً أغضب ، أحياناً لا أغضب ، أحياناً أصل ، أحياناً أقطع ، أحياناً أتسامح ، أحياناً لا أتسامح.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾
(سورة الشورى)

إذا غلب على ظن المقهور أن عفوه يصلح الطرف الآخر ينبغي أن يعفو ، فإذا غلب على ظنه أن عفوه سيزيده تعنفاً وانحرافاً ينبغي ألا تعفو عنه.

إذاً الخلق الحسن يوصف بمقياس الشرع ، أحياناً العطاء جيد جداً ، أحياناً العطاء لإنسان لا يستحقه ، وسينفق هذا المال في المعاصي والآثام لا يعد خلقاً حسناً ، وعند الناس سذاجة أحياناً ، أي عطاء يعد خلقاً حسناً ، لا ، المؤمن يعرف متى يعطي ، ومتى يمنع ، متى يصل ، ومتى يقطع ، متى يرضى ، ومتى يغضب ، متى يوالي ، ومتى لا يوالي.
دائماً وأبداً حينما يفهم الناس الخلق الحسن بالمقاييس الأرضية ، أو بمقاييس مستوردة ليست أصيلة في حياتنا ، ولا في ثقافتنا ، نقع في خطأ كبير.
من الخلق غير الحسن أن تقيم الناس بغير منهج الله عند الناس ، يقول لك : منفتح ، والفتاة المتفلتة اسمها متحضرة ، والذي يأكل المال الحرام اسمه ذكي ، والمنافق اسمه لبق ، فنحن لا نعتد بتقييم البشر من خلال قيم مستوردة أرضية للخلق الحسن ، الخلق الحسن يقيم من قبل خالق السماوات والأرض ، وقيم أيضاً من خلال سنة النبي عليه الصلاة والسلام.
الأستاذ عدنان:

دكتور ، أحياناً ، وضمن الخلق الحسن الممنهج من خلال القرآن والسنة يمكن أن يكون للإنسان عمل ما ضمن الخلق الحسن ، والتصرف الحسن ، ولكنه في ميدان إبراز قول أو نصيحة لإنسان آخر ، أن أكون على خلق حسن في معاملتي معك ، يقتضي أن أشير إلى مواطن ما أرى تبياناً بلباقة وأسلوب جميل ، وما يناسب ذلك ، وأحياناً قد أكون صريحاً إلى مستوى الفضاظة ، يمكن أن يكون هذا ، ولكنه أيضاً ضمن الأسس الكبيرة الواسعة في منهج القرآن الكريم والسنة الشريفة المطهرة ، كيف يبرز الخلق الحسن ؟

الدكتور راتب:

كيف يبرز الخلق الحسن في ساحة المعاملة ؟

– 1 لا بد للخلق الحسن أن يكون مرتبطاً بالحكمة:

هنا نضيف إلى الخلق الحسن الحكمة ، فليس بحيكَم من لا يداري من لا بد من مداراته ، ليس بحكيم من أعطى في موطن المنع ، ومن منع في موطن العطاء ، الحكمة أن تفعل ما ينبغي مع من ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي ، وبالطريقة التي ينبغي ، هنا ندخل الحكمة إلى الخلق الحسن.

لذلك الإنسان أحياناً لا يعفو ، والنبي مرة لم يعفُ عن إنسان لأنه عفا عنه أول مرة ، وبالع في إيذاء أصحابه وقتلهم ، المرة الثانية لم يعفُ عنه ، فالخلق الحسن يرتبط بالحكمة. لذلك من حدث الناس بالحكمة ، وليسوا أهلاً لها فقد ضيع قيمتها ، ومن منعها أهلها فقد ظلمهم ، لذلك من أمر بمعرف فليكن أمره بمعروف.

– 2 الفضيلة وسط بين طرفين:

على كلٍ ، بشكل عام التطرف سهل ، والتهور نقيصة ، والجبن نقيصة ، والشجاعة بينهما ، وإتلاف المال نقيصة ، والبخل نقيصة ، والكرم بينهما.

لذلك قالوا : الفضيلة وسط بين طرفين ، ودائماً وأبداً التطرف سهل. مثلاً : على مستوى التربية سهل جداً أن يضرب الأب ابنه ضرباً مبرحاً لذنوب صغير ، وسهل جداً أيضاً أن يسبب أخلاقه بلا رادع ، وبلا توجيه ، ولكن البطولة أن يكون الطفل مع أبيه محباً له إلى درجة عجيبة ، ويخاف منه إلى درجة عجيبة ، أن يجمع بين الرهبة والرغبة ، دائماً المواقف المتوسطة المعتدلة صعبة ، تحتاج إلى مهارة ، بينما التطرف سهل جداً ، سهل أن تكون متطرفاً يمنة أو يسرة ، أما أن تكون وسطياً معتدلاً فهذا الذي ذكره الله عز وجل عن أنبيائه:

﴿وَيَذْعُونا رَغَباً وَرَهَباً﴾

(سورة الأنبياء الآية : ٩٠)

الأستاذ عدنان:

دكتور ، ممكن أن يقول إنسان : إذا تعددت هذه الأمور من خلال ما وضحتم ، قد يحتار الإنسان كيف يكون على الخلق الحسن ، أنا مثلاً أود أن أجعل نفسي على طريق الخلق الحسن ، فما هي الخطوات ؟ وكيف أبدأ ؟ وما هو المنهج ؟.

الدكتور راتب:

الخطوات العملية في ميدان الخلق الحسن:

أنا أريد أن أبين حقيقة قد تغيب عن الإخوة المشاهدين ، وهي : أنك إذا أردت أن تجري فحصاً لقيادة المركبة ، أنا فيما أعلم يمتحن بالطريقة التالية : يكلف أن يرجع بها إلى الوراء ، وعلى طريق ضيق يكاد

يساوي عرض المركبة ، وهناك قطع من البلاستيك إذا مس واحدا منها رسب ، لماذا فحص هكذا ؟ لأن أصعب شيء في القيادة أن ترجع إلى الوراء ، وعلى طريق ضيق ، وأن تنجح في هذا الامتحان أمرٌ صعب .

– 1 البيت:

لذلك الإنسان تظهر حقيقته تماماً في بيته ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((خيرُكم خيرُكم لأهله ، وأنا خيرُكم لأهلي))

[أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها]

الإنسان خارج بيته من مصلحته أن يكون أنيقاً ، من مصلحته المادية أن يكون لبقاً ، أن يعتذر ، أن يتسم ، أن يجمل صورته ، أن يختار الكلمات اللطيفة ، هذا كله بالتعبير المعاصر (بزنز) ، ومصلحة ، لكن الإنسان ينكشف على حقيقته في البيت ، حيث لا رادع ، ولا رقيب ، ولا محاسب ، أنت ذو خلق حسن بقدر ما أنت أخلاقي في بيتك.

((خيرُكم خيرُكم لأهله ، وأنا خيرُكم لأهلي))

فالمرأة ما أكرمها إلا كريم ، ولا أهانها إلا لئيم ، النساء يغلبن كل كريم ، ويغلبن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً ، من أن أكون لئيماً غالباً .
فأنا أرى أن الخلق الحسن يبدأ من البيت ، وهذا البيت جنة المؤمن ، والمؤمن كل كمالاته تظهر في بيته ، وأنا أعجب كثيراً بالتماسك الأسري ، حينما يكون الأب مؤمناً ومحسناً ، وزوجاً صادقاً ، والمرأة مخلصه ، والأولاد ربوا في هذا الجو الرائع ، هذا هو الخلق الحسن.

– 2 خارج البيت:

الآن خارج المنزل أغلب الظن من كان أخلاقياً في بيته هو أخلاقي خارج المنزل ، أما العكس فمنتشر جداً بين الناس ، في أعلى في درجات النعومة خارج البيت ، فإذا دخل إلى البيت فهو كالوحش الكاسر ، هذا شيء مرفوض ، والنبي الكريم بيّن أن الخلق الحسن يبدأ من بيت الإنسان ، من أقرب الناس إليه ، من زوجته .

أخلاق المصلحة لا قيمة لها:

إذاً: قضية الخلق الحسن لها أسباب ، وسوف أصل إليها ، والسبب الذي يأتي بالنتيجة أنا أعتقد والله أعلم إن كنت مصيباً فمن فضل الله ، وإن لم أكن فمن تقصيري ، أنا أعتقد أن الذي يتصل بالله اتصالاً صحيحاً يشتق منه العدل ، والإنصاف ، والرحمة ، والحكمة ، والكرم ، أنا لا أصدق أن قيمة أخلاقية عالية جداً تكون بعيدة عن الدين ، أما الذين هم أذكى جداً ، ويتصرفون بذكاء ، وكأنهم أخلاقيون ، حينما تمس مصالحهم يصبحون كالوحوش كما نرى .

فلذلك هناك أخلاق أساسها الذكاء والمصلحة ، لكن هؤلاء يمتحنون ، فإذا امتحنوا ، وجاء من مس مصالحهم يصبحون كالوحوش تماماً ، لا قيمة لهذا الخلق الذي أساسه الذكاء وطلب الربح ، أما الخلق الأصيل فهو الخلق الذي يتأتى من اتصال الإنسان بربه ، هذا خلق ثابت ، لا يتبدل ، ولا يتغير ، لا يتأثر ، لا بالمصالح ، ولا بإقبال الدنيا ، ولا بإدبارها ، لا يتأثر لا بالمكاسب ، ولا بالعقبات ، ولا بالصوارف.

الصحابة الكرام كانوا أخلاقيون من هذا النوع ، لذلك حينما فتحت القدس من قبل الفرنجة ذُبح سبعون ألفاً ، أما حينما فتحها صلاح الدين فلم يرق قطرة دم واحدة ، فالمؤمن عنده كمال داخلي.

الخلق الحسن صورة الإنسان من الداخل:

أستاذ عدنان ، بشكل أو بآخر لي كلمة دقيقة : الخلق الحسن صورة الإنسان من الداخل ، أنا لي صورة من الخارج ، هذا الإنسان له طول معين ، له شكل وجه معين ، له لو جلد معين ، له أناقة معينة ، هذه الصورة من الخارج ، أما الخلق الحسن فصورته من الداخل ، أدبه ، تواضعه ، رحمته ، قلبه الذي يشع رحمة ، حلمه ، خيره ، كرمه ، الخلق الحسن صورة الإنسان من الداخل ، وأكد أقول : إن أول ثمرة من ثمار الإيمان الخلق الحسن وإن أولى صفات الأنبياء:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(سورة القلم)

فالإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان.

أستاذ عدنان ، جزاك الله خيراً ، النبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصحابه في سفر ، أرادوا أن يعالجوا شاة ، قال أحدهم:

((عليّ ذبحها يا رسول الله ، فقال الثاني : عليّ سلخها ، وقال الثالث : وعليّ طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام : وعليّ جمع الحطب فقالوا : نكفيك ذلك يا رسول الله ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[أورد في الأثر]

هكذا كان عليه الصلاة والسلام.

كان مع أصحابه رواحل قليلة ، والأصحاب كثير ، وهو قائد ، قائد الجيش وزعيم الأمة ، ونبى الأمة ، وسيد الأنبياء والمرسلين ، فقال : كل ثلاثة على حدة ، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة ، سوى نفسه مع كل أصحابه ، أو جعل نفسه جندياً في هذا الجيش ، فركب الناقة في نوبته الأولى ، فلما جاء دوره في المشي ، توسلا صاحبايه أن يبقى راكباً ، فقال قوله والله لو أرددها آلاف المرات لا أشبع منها ، قال:

((ما أنتما بأقوى مني على السير ، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر))

[أحمد]

دخل عليه أعرابي ، نظر إلى المجلس قال : أيكم محمد ؟ ما له كرسي خاص ؟ لم يتميز على أصحابه أبداً ، لذلك هؤلاء الأصحاب الذين افتدوه بأرواحهم هم الرابحون ، الإنسان قوي بكماله.

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

(سورة آل عمران الآية : ١٥٩)

مع أنك نبي ، مع أنك رسول ، مع أنك أوتيت الوحي ، مع أنك أوتيت القرآن مع أنك أوتيت الفصاحة ، مع أنك أوتيت البيان ، مع كل هذه الخصائص:

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

نأتي إنسانا يدعو إلى الله ، لا معه وحي ، ولا قرآن ، ولا معجزات ، ولا بيان ولا جمال ، ولا فصاحة ، ويدعو الناس إلى الله بغلظة ، لم الغلظة يا أخي ؟

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

أخلاق الدعوة وأخلاق الجهاد:

فلذلك هناك أخلاق الدعاة ، قال تعالى:

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(سورة فصلت)

وقد يخلط الناس بين أخلاق الدعاة ، وأخلاق الجهاد.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾

(سورة التوبة الآية : ٧٣)

تلك في الجهاد ، في ساحة المعركة فقط ، ساحة المعركة هكذا أخلاقها ، فلذلك الخلق الحسن صورة الإنسان من الداخل ، ويمكن أن نضغطها بأن كل شيء جاءك من الله تتلقاه بالشكر ، وأن كل شيء أدبته لله تعذر عنه ، لأنه لا يليق بمقام الله ، وأنك مع الناس تكف عنهم الأذى ، وتبذل له المعروف. الأستاذ عدنان:

دكتور ، أحياناً كما يقال : ينضح الإناء بما فيه ، فلان من الناس في طويته أنه سهل المعشر ، سهل الحديث ، متواضع ، وهو مع الآخرين كذلك ، في بيته وخارج بيته ، لكننا نشهد في بعض الأحيان إنساناً آخر في الصفات نفسها ، ولكنه لا يتراجع عن مبادئه الأساسية الممنهجة ضمن شرع الله ، أما الأول

فيمكن أن يتراجع من خلال ضعف في شخصيته ، فكيف نحكم موضوع حسن الخلق في هذا الأمر ؟
الدكتور راتب:

لا مجال للمساومة في المبادئ والقيم ، لكن عليكم بالمداواة:

في موضوع المبادئ والقيم لا مجال للمساومة ، ولا للمسايرة ، ولا لأنصاف الحلول ، أما في موضوع التعامل العادي فلك أن تتسامح ، لذلك هنا نفرق بين المداهنة ، والمداواة ، المداهنة بذل الدين من أجل الدنيا ، بينما المداواة بذل الدنيا من أجل الدين.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾

(سورة القلم)

المؤمن الصادق لا يداهن في مبادئه وقيمه ، لكنه يداري الناس ، يبذل لهم من الدنيا ما شاء ، فالمؤمن يداري ، ولا يداهن ، بينما غير المؤمن يداهن ولا يداري.